الجزء الثاني — المجلد التاسع والأربعون

مجلة

مجمع اللغة العربية بدمشق

« مجلة المجمع العلمي العربي سابقاً »

ربيع الأول سنة ١٣٩٤ هـ — نيسان « ابريل » سنة ١٩٧٤ م

رأيان

متباعدان متقاربان

الأستاذ شفيق جبري

رحم الله الأستاذ الرئيس « محمد كرد علي » فقد مهّد لنا سبيلاً في كتابه : « أمراء البيان » إلى التمتع من بلاغة البلغاء ، في وقت اشتدت فيه الحاجة إلى مثل هذا التمتع ، إنا نمر بكثير من أقوال هذا العصر فما نعرف لهذه الأقوال صلة بلغة العرب ، وإذا كان لكل عصر لغة فلسنا نعرف لبعض لغة هذا العصر وجهاً من الوجوه ، لا هي عربية ولا هي أعجمية ، وقديماً كان البلغاء من الشعراء والكتاب يخترعون لعصورهم لغة تناسب تلك العصور ، ولكنهم لم يخرجوا في هذا الاختراع عن جوهر لغة العرب ولا انحرفوا عن محاسن ذوقها ، أما اليوم ؛ فلم يعد لهذا الجوهر ولهذه المحاسن أثر .

رحم الله الأستاذ الرئيس ، فقد انتخب لنا من بلغاء العرب جملة صالحة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من كلامهم نصفّي بها أذواقنا ونقوّم بها بياننا ، ولست في حاجة في هذا المقام إلى التنويه بفضل تحليله لما وقع عليه اختياره من أمراء البيان ، أو إلى التنويه ببراعة تصويره لعصورهم ، وإنما كل همي التنويه بهذا الكلام البليغ الذي انتخبه لنا حتى نبقى على صلة ببلاغة العرب على تراخي الأحقاب .

من أمراء البيان الذين جاء ذكرهم في كتاب الأستاذ الرئيس : ابن المقفع والجاحظ ، وإليهما تناهت بلاغة العرب على ما أعتقد ويعتقده كثير من الأدباء ، ولقد أحببت في هذا المقام أن أستشهد برأيين لهذين الإمامين العظيمين في حفظ الكلام الحسن ، وما يهمنا أن يتباعد هذان الرأيان في الظاهر ويتقاربا في الباطن ، بقدر ما يهمنا تنبيه ابن المقفع على الاقتداء بالصالحين من البلغاء وتنبيه الجاحظ على الابتداع والاختراع .

قال ابن المقفع :

« ومن أخذ كلاماً حسناً عن غيره فتكلّم به في موضوعه على وجهه فلا يَرينّ عليه في ذلك ضؤلة ، فإن من أعين على حفظ قول المصيبين ، وهدي للاقتداء بالصالحين ، ووفّق للأخذ عن الحكماء ، فلا عليه ألا يزداد ، فقد بلغ الغاية ، وليس بناقِصه في رأيه ولا بغائضه في حقه أن لا يكون هو استحدث ذلك وسبق إليه » .

هذا ما قاله ابن المقفع في أخذ الكلام الحسن ، ولننظر بعد ذلك في قول الجاحظ في هذا الباب ، قال أبو عثمان :

« ومتى اتّكل صاحب البلاغة على الهوينا والوكال ، وعلى السرقة والاحتيال لم ينلْ طائلاً وشق عليه النزوع واستولى عليه الهوان واستهلكه سوء العادة ، والوجه الضار أن يحفظ ألفاظاً بعينها من كتاب بعينه أو من لفظ رجل ثم يودّ أن يعدّ لتلك الألفاظ قسمها من المعاني ، فهذا لايكون إلا بخيلاً فقيراً ، وخائفاً سروقاً ، ولا يكون إلا مستكرهاً لألفاظه ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

متكلّفاً لمعانيه ، مضطرب التأليف ، متقطع النظام ، فإذا مرّ كلامه بنقّاد الألفاظ وجهابذة المعاني استخفّوا عقله وبهرجوا علمه . ثم اعلم أن الاستكراه في كل شيء سمج ، وحيث ما وقع فهو مذموم ، وهو في الظرف أسمج ، وفي البلاغة أقبح ، وما أحسن حاله ما دامت الألفاظ مسموعة من فمه ، مسرودة في نفسه ، ولم تكن مخلّدة في كتبه » .

وقد لخّص الأستاذ الرئيس كلام الجاحظ بقوله : ومعنى قوله هذا أن خير الكتّاب من لم يستظهر ألفاظاً بعينها ليكرهها على الاندماج في تراكيبه .

★ ★ ★

أما وقد فرغنا من الاستشهاد بكلام إمامين عظيمين من أئمة البلاغة فلننظر بعد ذلك في تباعد هذا الكلام وتقاربه .

رأي ابن المقفع في أخذ الكلام الحسن وحفظ قول المصيبين والاقتداء بالصالحين والأخذ عن الحكماء واضح لا غموض فيه ، فابن المقفع لا يرى في هذا كله نقصاً في الرأي ، وما أظن أن الذين تمرّنوا على منظوم القول ومنثوره قد أهملوا حفظ ما يستحسن من هذا المنظوم وهذا المنثور ، فإن مثل هذا الحفظ مادة يستعينون بها على الإفصاح عن خواطرهم والإعراب عن أفكارهم ، وعلى قدر جودة المحفوظ وحسن الاختيار يكون التبريز في مجال البلاغة . وليس معنى هذا كله أن يحفظوا كلام غيرهم وينسبوه إليهم ، غير أن المفردات المحفوظة قد تكون على كثرة الاستعمال وحسن التصرف ملكاً لمن حفظها ، إذ أن حافظها يتصرف فيها على قدر ما يوحي به إليه ذوقه ، فهي وإن كان قد أخذها عن غيره إلا أنه لم يستعملها كما استعملها غيره فقد يحولها عن وجه إلى وجه حتى تصبح بعد هذا التحويل ملكه الخاص وحتى تنسب إليه فيكون هو صاحبها فلولا حفظ المستحسن من كلام البلغاء لما استطاع شاعر أو كاتب أن يخوض في باب من الأبواب ، فهو ينظر في كلام البلغاء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فيعلق بذهنه من هذا الكلام ما يعلق ثم يتصرف فيه على كثرة الاستعمال حتى يصبح كأنه هو الذي اخترعه ، وفرق كبير بين هذا العمل وبين أخذ كلام بعينه وإدماجه في شعر أو نثر على حالته دون زيادة أو نقصان ، فإن مثل ذلك إنما هو سرقة والسرقة مذمومة في كل حال ، ولقد جرى كثير من الشعراء والكتّاب على أخذ الكلام الحسن ، فتصرفوا فيه أبرع تصرف فما رماهم رام بسرقة ، لقد حفظوا ما حفظوا من كلام البلغاء ثم نسوه بعد حين ، ولكنهم لم ينسوه إلا بعد أن تصرفوا فيه على وجه جديد حتى نُسي صاحبه القديم وعرف بصاحبه الحديث .

وإذا كان ابن المقفع لا يرى نقصاً في أخذ الكلام الحسن عن المصيبين والصالحين والحكماء فإن الجاحظ يرى في مثل هذا الأخذ شيئاً من السرقة والاحتيال ، فهو يريد الاختراع ، يريد أن تكون الألفاظ مسموعة من فم صاحبها ، مسرودة في نفسه .

ولكن هل من تباعد بين هذين الرأيين ، لا ريب في أن التباعد ظاهر ولكنا إذا تعمقنا في التدقيق وجدنا تقارباً في قول ابن المقفع وقول الجاحظ ، فابن المقفع لا يرى نقصاً في أخذ الكلام الحسن ، إلا أن هذا الكلام إذا أخذه كاتب أو شاعر تصرف فيه على نحو ما تقدّمت الإشارة إليه حتى أصبح ينسب إليه ، فإن الألفاظ في الأذهان تتزاوج إذا صح هذا التعبير ، وفي نظير هذا التزاوج تتبين مقدرة الكتاب والشعراء ، تتبين مقدرتهم في إضافة لفظة إلى لفظة ، أو صفة إلى موصوف ، أو في تحويل لفظ عن وجه إلى وجه ، أو في غير ذلك من التصرفات التي تظهر فيها عبقرية الكتاب والشعراء ، وإذا كان الجاحظ يحث على الاختراع أفنرى سبيلاً إلى مثل هذا الاختراع دون حفظ طائفة من كلام البلغاء ، فإن هذا الحفظ إنما هو أساس كل اختراع ، فكيف يخترع الكاتب أو الشاعر إذا لم يملأ ذهنه من مادة سابقة ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فإن كثيراً من الشعراء الذين كانوا يقلدون في بدء أمرهم من أعجبهم شعرهم وفتنوا بـه ما لبثوا بعد أن حفظوا ما حفظوه من شعر المعجبين بهم أن تخلّوا عن تقليدهم وذهبوا في شعرهم مذهبهم الخاص الذي عرف بهـم ، وفي مقدمة هؤلاء الشعراء على ما أظن المتنبىء ، فقد كان في صدر أمـره يقلّد أبا تمام في بعض شعره وربما كان يحفظ بعض كلامه ثم زهد في التقليد وتصرف في المحفوظ فأصبحت له طريقة خاصة عرفت به وعرف بها حتى ملأ الدنيا وشغل الناس بهذه الطريقة .

وتلخيص القول : لا بد من أخذ الكلام الحسن عن المصيبين والصالحين والحكماء حتى يكون هذا الكلام بعد حسن التصرف مادة لكل اختراع ، وفي هذا الوجه نرى تقارباً باطناً في رأي إمامين عظيمين من أئمة البلاغة وهما ابن المقفع والجاحظ وإن كنا نرى تباعداً ظاهراً في هـذا الرأي ، وكيف كان الأمر فالذي يستنبط من كل ما تقدم أنه إذا كان إمام مثل ابن المقفع يحث على حفظ كلام البلغاء ، وإذا كان إمام مثل الجاحظ يحث على الاختراع ، وقد عاشا في عصـر وصلت فيه البلاغة إلى أبعـد آفاقها فكيف يجوز لنا أن نقصر في هذا الحفظ وفي هذا الاختراع في عصر بعدنا فيه كل البعد عن بلاغة العرب حتى أصبحنا لا نجد لهذه البلاغة أثراً في كلامنا .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net